

أهمية مؤلف أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر

The importance of a research and opinions author
in the history of Algeria

د. جاكركحسن Dr Djaker Lahcen djaker.lahcene@yahoo.fr	تاريخ حديث معاصر	جامعة مصطفى اسطمبولي - معسكر - الجزائر
DOI :		

ملخص

أهمية موسوعة أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر: يعد مؤلف "أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر" من المؤلفات الهامة التي يعتمد عليها الباحثون في كتابة تاريخ الجزائر، وذلك لأسباب تتمثل في كون أن العمل الذي قدمه الدكتور أبو القاسم سعد الله في أربعة أجزاء يشكل موسوعة ملمة بجوانب مختلفة من تاريخ الجزائر إبان العهدين العثماني، والفرنسي. ومن بين الملاحظات التي يمكن استخلاصها من عمله هذا نذكر مايلي:

- تركيز الدكتور سعد الله على الموضوعات ذات الطابع الثقافي.
- تنوع موضوعات الموسوعة التي شملت رموز المقاومة و علماء الجزائر، و مؤلفاتهم، وتاريخ الثورة الجزائرية.
- توضيح بعض القضايا التي يكتنفها اللبس منها رسالة الأمير خالد إلى الرئيس الأمريكي ويلسون سنة 1919 وهي الرسالة التي تبرز الاتجاه الاستقلالي للأمير خالد.
- تحلي الدكتور سعد الله بالموضوعية عند تناوله للأحداث.
- جاءت هذه الموسوعة للرد على كتاب المدرسة الاستعمارية الذين عرضوا تاريخ الجزائر إلى تشويه فظيع.

الكلمات المفتاحية: سعد الله ؛ أبحاث ؛ تاريخ؛ الجزائر؛ تكريم.

Abstract

The importance of an encyclopedia of research and opinions in the history of Algeria. The author of "Research and Opinions on the History of Algeria" is considered one of the important books that researchers rely on to write the history of Algeria, for the reasons that are represented in the fact that the work presented by Dr. Abu al-Qasim Saad Allah in four parts constitutes an encyclopedia familiar with various aspects of the history of Algeria during the two periods. Ottoman, and French. Among the notes that can be extracted from his work, we mention the following:

Dr. Saadullah's focus on issues of a cultural nature.

The diversity of the topics of the encyclopedia, which included the symbols of the resistance, the scholars of Algeria, their books, and the history of the Algerian revolution.

Clarification of some issues that are confused, including Prince Khalid's message to US President Wilson in 1919, which is the message that highlights the independence of Prince Khaled.

-Dr. Saad Allah is objective when dealing with events.

-This encyclopedia came to answer the book of the colonial school, who presented the history of Algeria to a terrible distortion.

Keywords: Saad Allah ; Research ; History ; Algeria ; Honoring.

يعتبر أبو القاسم سعد الله من أكبر المؤرخين الجزائريين، والعرب الذين لم يثروا المكتبة بعدد مؤلفاتهم فحسب، بل بنوعية الدراسات التاريخية، والأدبية التي ظهرت في وقت كانت فيه الجزائر بحاجة إلى دور المؤرخين للتصدي للمدرسة الإستعمارية التي وجدت ضالتها في غياب مدرسة وطنية موازية رغم صدور بعض الكتب قبل الإستقلال على غرار كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث لمبارك الميلي، وكتاب الجزائر لتوفيق المدني.

ومن بين المؤلفات التي تكتسي أهمية بالغة، وتدخل في سياق العمل الذي قام به سعد الله في مواجهة المدرسة الاستعمارية، وتصحيح الأخطاء التي روجت لها، و دحض الروايات المغرضة يمكن الالتفات إلى "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر". إن أهمية مؤلف "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" لا يمكن إبرازها إلا من خلال النقاط الآتية:

1- عمل موسوعي

انفرد سعد الله خلافا للكثير من المؤرخين الجزائريين بميزة في إنتاجه العلمي، ألا وهي اللجوء إلى كتابة الموسوعات التي تمثلت في تاريخ الجزائر الثقافي الذي يتكون من تسعة أجزاء أضيفت لها أجزاء أخرى تعالج المرحلة الإسلامية.

أما موسوعة أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، فإنها تتشكل من خمسة أجزاء بلغ عدد صفحاتها 1772 صفحة صادرة في طبعة خاصة سنة 2009 بالجزائر عن عالم المعرفة، كما تضمنت معطيات علمية غزيرة، وموضوعات متنوعة تتعلق بكتابة التاريخ، و علماء الجزائر، و الرحلات، و الحركة الوطنية و الثورة الجزائرية، و السيرة الذاتية للأمير عبد القادر، و قضايا مرتبطة بالعلاقات التجارية بين المغرب العربي وإفريقيا ما وراء الصحراء.

هناك موضوعات أخرى لا نكاد نجدها في الكتابات التاريخية في الجزائر، من ذلك موضوع "وثائق في مكتبة جامعة منسوتا بأمريكا"، ونظرة الأمريكيين للتاريخ الجزائري. وقد يعتقد البعض أن نشر بعض المقالات العلمية في مجلات وطنية، أو أجنبية ثم إعادة جمعها في كتاب، أو موسوعة تحت عنوان واحد كما هو الحال بالنسبة لأبحاث وآراء... هو إعطاء الانطباع بأن للكاتب عدة مؤلفات، لكن في واقع الأمر، أن ما أقدم عليه سعد الله، وبعض المؤرخين مثل يحي بوعزيز في "موضوعات و قضايا من تاريخ الجزائر والعرب" كان يرمي إلى تعميم الفائدة على الطلبة و الباحثين بتوفير لهم المادة اللازمة خاصة إذا علمنا أن بعض المجالات الأجنبية غير موجودة في بلادنا، وأن البعض الآخر قد يدفع بالطالب إلى البحث عن إعداده و تصفحها في ظرف زمني كبير.

2- الموضوعية

لما أدرك أهمية الموضوعية في كتابة التاريخ، فإن سعد الله أخذ بها، و توخى الحذر في كتابة التاريخ عامة، و تاريخ الثورة الجزائرية خاصة.

ووعيا منه بمخاطر الخوض في كتابة تاريخ الثورة لعدم توفر الوثائق الضرورية للبحث، و إمكانية السقوط في مهوى الإقليمية تناول سعد الله معركة غوطه شيكة (1) التي وقعت بمنطقة وادي سوف في أوت 1955، وهي المنطقة التي ينتهي إليها، متبعا الخطوات التي يجب على المؤرخ أن يتبعها، فنجد يستمع إلى الروايات الشفوية، ويقول أن أصحابها غير متفقين في عدد القوات، ونوع الأسلحة المستخدمة، و النتائج التي انتهت إليها بحكم مستواهم الاجتماعي، و الثقافي الذي جعلهم متباينين في درجة التركيز. ومن بين الملاحظات التي توصل إليها سعد الله خلال استماعه لشهادات المجاهدين هناك أيضا خسائر العدو في الأرواح التي كان مبالغ فيها بحسبه، و المقدرة بأكثر من 600 قتيل في صفوف الفرنسيين.

هناك أمثلة أخرى تدل على حرص سعد الله على التحلي بالموضوعية، نذكر منها ما كتبه بشأن أزمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في سنة 1954، رغم ميله إلى الفكر الإصلاحي، ونشأته في بيئة إصلاحية: "...و من الذين صرحوا لي شخصيا بمؤاخذة الإبراهيمي على بقاءه في المشرق و إهماله شؤون الجمعية المرحوم العربي التبسي، النائب الأول لرئيس جمعية العلماء ... والعربي التبسي، رغم تدينه، و إخلاصه لفكرة جمعية العلماء، لم يكن محل تقدير كل أعضاء الجمعية ... ولم يكن يتمتع لا بأدب الإبراهيمي،

ولا بدبلوماسية خير الدين ... في سنة 1954 أصبح أربعة رجال من قادة الجمعية في المشرق، وهم الإبراهيمي، و الورتلاني، و التبسي، و بوشمال كل ذلك و الجزائر تعيش في ظروف صعبة..." (2)

3- غلبة الطابع الثقافي

إذا تأملنا في الموضوعات الواردة في "أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر"، فإننا نجد حضور الطابع الثقافي أكثر من غيره، و ذلك بسبب مكانة الثقافة، و ما تحويه من عناصر الهوية الوطنية المتكونة أساساً من الدين و اللغة و دورها في اكتشاف الجزائري ذلك الاختلاف بينه، و بين الآخر (الفرنسي) في الدين و اللغة و الجغرافيا و العادات و التقاليد. وبالإضافة إلى أهمية الثقافة التي لا يمكن إفراغها من محتواها السياسي، و الاستغناء عنها في البرهنة على وجود الأمة، و تحديد الهوية، هناك عامل يكون قد جعل سعد الله يخصص حيزاً هاماً للجانب الثقافي في هذه الموسوعة، بل و في جل مؤلفاته، بخاصة تاريخ الجزائر الثقافي، و أفكار جامحة، ألا وهو نشأته في بيئة محافظة انتشرت فيها الحركات الإصلاحية، و الصوفية. وعلى الرغم من أهمية الموضوعات الواردة، إلا أن هناك بعض القضايا الحساسة التي تستحق التنويه هنا، وهي التي تمثلت أساساً في موقف مفتي المالكية في مدينة الجزائر الكبابطي (3) الراض لضم الأوقاف الإسلامية إلى أملاك الدولة، و إدخال اللغة الفرنسية في المدارس القرآنية، وهو الموقف الذي اعتبره سعد الله رمزاً للتحدي الوطني، و رغبة شعبية لم تبرزها من جديد إلا نصوص الحركة الوطنية، و موانيق الثورة. (4)

وقد ذهب سعد الله عند الحديث عن اختلاف الجزائري عن الفرنسي إلى أشياء قد تبدو ثانوية بالنسبة للبعض، من ذلك اللباس الذي كان يرتديه محمد بن شنب أستاذ اللغة العربية بجامعة الجزائر المتوفي سنة 1929م.

4- القيم الوطنية و الدينية

إن الدراسة التي يقدمها سعد الله في هذه الموسوعة ليست مجرد معلومات، وأحداث يحفظها القارئ، و أنما عبر، و دروس، و قيم وطنية، و أخلاقية، و دينية، و إنسانية بل و وجودية يستفيد منها المرء في حاضره، و مستقبله لبناء دولته، و مجتمعه على أسس متينة قادرة على مواجهة التحديات الداخلية، و الخارجية. لكن المرء لا يستطيع أن يستوعب تلك القيم، و الفوائد، إلا إذا وقف عند الحيز الكبير الذي خصه الكاتب إلى العلماء، و الشخصيات الوطنية من أمثال الأمير عبد القادر،

وأحمد باي، وأبوراس الناصري، وعبد القادر المشرفي، والكبابطي، وعلماء الجزائر الذين بعثوا برسائل برئاسة مفتي المالكية في القرن 19م. ومن بين الشخصيات التي لفتت انتباهنا شخصية الأمير عبد القادر الذي تحلى بميزات بارزة نقلها لنا سعد الله في عبارات قوية تجعل الدارس يقف متأملاً في وطنية الأمير، وما تخلفه من آثار إيجابية في النفوس، والضمائر. ومن بين هذه العبارات نذكر: "مكانة أسرته (الأمير) جعلته فخوفاً معترفاً بأصله، وشرفه... إن الوطنية قد تطورت بسرعة نتيجة تصرفات الأمير. فهو الذي أخرج الوطنية من ميدان النظرية التي نادى بها حمدان خوجة مثلاً إلى ميدان التطبيق، فالوطنية في مفهوم الأمير هي القوى المحاربة ضد العدو الأجنبي. وبفضله قد عم التفكير الوطني الجزائري، كما تدعم الفكر القومي العربي. فقد بذل الأمير جهوده في توحيد القبائل المتنافرة، وكون منهم دولة حديثة، ودعا زعماء البلاد المعاصرين له إلى الوحدة الوطنية. فكان هذا موقفه من الحاج أحمد باي قسنطينة وفرحات بن سعيد شيخ العرب الخ..." (5)

إن مكانة الأمير عبد القادر عند سعد الله برزت أيضاً في نقده للمؤرخ الفرنسي شارل اندري جوليان الذي أهمل الحديث عن مساهمة الأمير في إنشاء أول حكومة ديمقراطية جزائرية في كتابه "تاريخ الجزائر المعاصرة" (6)، ومعاتبته للمؤرخ التونسي عبد الجليل التميمي الذي يقول عنه: "لا ندري من أين شرب حب تاريخ بني عثمان، حتى لقد انتصر لهم ضد بني عدنان وقحطان، عندما مدح الحاج أحمد باي العثماني، وهاجم الأمير عبد القادر الهاشمي..." (7).

ومن الدروس التي نستخلصها أيضاً من هذه الموسوعة، تلك التي تتعلق بأهمية الوحدة الوطنية التي تبرز جلياً في الموضوعات التي تناولت أحداثاً، وشخصيات عرفتها مختلف جهات الوطن من ذلك الثورة في وادي السوف، ورحلة الباي محمد بن عثمان الكبير إلى الصحراء، و حياة و تراث محمد بن أبي شنب، و مذكرات الحاج أحمد باي، و رحلة الأغواطي في شمال إفريقيا و السودان و الدرعية حوالي 1829، و ميزات بارزة من حياة الأمير عبد القادر... إن حرص سعد الله على تغطية تاريخ الجزائر بمختلف مناطقها دفعه إلى التنقل برفقة الأستاذ تواقين أحمد من العاصمة إلى تندوف سنة 2012 شهور قليلة قبل وفاته، رغم 'هروبه' و 'تمرده' على نصائح طبيبه الخاص الذي منعه من السفر. لقد اطلع سعد الله أثناء زيارته لتندوف على محتويات خزانة آل العبد التي

يشرف عليها المجاهد طاهر الحبيب، واقتبس منها ما شاء، ونقل عن بعض المخطوطات، والمستنسخات ما يهمنه.

و يذكر أحمد تواقين أن سعد الله اغرورقت عيناه بالدموع تأسفا على أنه لم يتمكن من كتابة كلمة على زاويتي. آل العبد التيجانية، و آل بلعشم القادرية لعدم توفره - كما قال - على الوثائق اللازمة(8).

5- الأهمية العلمية والمعرفية

يشكل العمل الموسوعي لسعد الله سندًا هامًا، ومرشدًا للطلبة، و الباحثين الذين يقفون من خلاله على الخطوات المنهجية، و المعطيات العلمية، و المعرفية الثمينة. ومن بين المسائل التي تسترعي الاهتمام، اعتماد المؤلف على الوثائق الأرشيفية المتواجدة بإكس أون بروفانس، و رسائل علماء الجزائر، و المخطوطات التي تعتبر من المصادر الأساسية في أي بحث أكاديمي. و الموضوعات الآتية كانت من أكثر القضايا التي اعتمد فيها على هذه المصادر:

- الجزائر في القرن الحادي عشر حسب مخطوط كعبة الطائفين(9).
- قضية ثقافية بين الجزائر وفرنسا سنة 1843: موقف المفتي الكبابي من الأوقاف واللغة (رسائل بعثها الكبابي إلى وزير الحربية الفرنسية، ومدير الداخلية بالجزائر) (10).

- العثور على النسخة المسروقة من كتاب "تحفة الزائر" للأمير محمد(11)
- دراسة إجمالية في دفتر محكمة المدنية أواخر العهد العثماني 1821 - 1839 (12)
- وثائق عن الجزائر في مكتبة جامعة منسوتا (أمريكا)
- الجديد عن كتاب (كعبة الطائفين) أو الجزائر في القرن 17م.
- من رسائل علماء الجزائر في القرن 19م.
- الشيخ البشير الإبراهيمي في تلمسان من خلال الوثائق الإدارية 1933 - 1944. (13)
- تقرير للمفتي أحمد بن عمار: ظروفه ونصه. (14)

وبالإضافة إلى الوثائق الأرشيفية رفع سعد الله اللبس عن مسألة هامة ألا وهي إبراز مكانة الأمير خالد الذي ما زال البعض يعتبره من دعاة الإدماج، وذلك من خلال ترجمته للعريضة التي بعث بها حفيد الأمير عبد القادر إلى الرئيس الأمريكي ودرو ويلسون سنة 1919، وهي العريضة التي يعتبرها سعد الله إدانة للاحتلال الفرنسي، و يقول أنها

طالبات يحق تقرير المصير على الجزائر تحت إشراف عصبة الأمم، و تطبيق مبدأ عدم إجبار الشعوب على العيش تحت سيادة لا ترضى بها. (15)

ولم تقتصر جهوده في البحث عن المعلومات، و المصادر، بل شملت أيضا، التأكد من المصادر إن كانت كاملة، أو ناقصة، والعمل على البحث عن الأجزاء الضائعة منها، كما هو الحال بالنسبة لكتاب "تحفة الزائر" للأمير محمد نجل الأمير عبد القادر، وهو الكتاب الذي عثر سعد الله على النسخة المسروقة منه، وهي مخطوطة تتكون من جزئين تحمل عنوان آخر هو "تاريخ الأمير عبد القادر"، وذلك بالمكتبة السلطانية في اسطنبول التركية. (16) ومن الملاحظات التي يمكن الوقوف عندها في هذه الموسوعة، حرص سعد الله على الدقة في اختيار عناوين المقالات مع الأخذ بعين الاعتبار، المجلة التي تنشر فيها. ففي مقال له في مجلة "الثقافة" الجزائرية تحت عنوان "مؤلفات المشرف المعسكري" لم ترد في العنوان كلمة "الجزائري" وإنما "معسكري"، وذلك عكس ما جاء في مقال: الحملة الفرنسية على مصر و الشام في رأي "أبي راس الجزائري" وهو المقال الذي ورد فيه "أبوراس الجزائري" وليس "المعسكري" وذلك لأن المقال الأول نشر في مجلة جزائرية، أما الثاني فإنه نشر في مجلة أجنبية ألا وهي المجلة التاريخية المغربية الصادرة في تونس سنة 1983. (17)

6- فضح خطورة الكتابات الإستعمارية

تصدى سعد الله إلى الكتابات الاستعمارية الفرنسية التي تنفي وجود الدولة الجزائرية، و مفهومها الوطني وذلك من خلال التطرق إلى مواقف المؤرخين العسكريين 1830 – 1880 والاختصاصيين 1880 – 1954 الذين عرّفوا بمجاراتهم للسلطة الاستعمارية التي جعلتهم يركزون في كتاباتهم على الجوانب الاقتصادية و الإدارية و العسكرية أي ما يخدم مصلحتها التي تقوم أساسًا على تبرير الاستعمار ونفي صاحب الأرض.

أما بخصوص الشعب الجزائري فإن سعد الله يقول أن هؤلاء المؤرخين أهملوا تاريخه، واعتبروا الجزائر منطقة جغرافية تداولت عليها الدول والشعوب وليس هناك في نظرهم أمة أو كيان أو مجتمع متماسك وفي رده عن المؤرخ شارل أندري جوليان الذي يرى أن الدولة الجزائرية لم تكن موجودة إلا بالاسم كتب سعد الله قائلاً: "خلال الفترة 1516 – 1830 ظهرت إلى الوجود دولة جزائرية تقوم على الوحدة الجغرافية

السياسية والاقتصادية للبلاد، بالإضافة إلى الوحدة الفكرية والروحية التي قامت منذ الفتح الإسلامي... أن علاقتها مع الخلافة الإسلامية كانت روحية فقط... وأن الجزائري في عهد التحالف مع الخلافة كان يدافع عن فكرتين لا تنفصلان في نظره: القومية (فكرة الانتماء إلى الأمة العربية) والوطنية (فكرة الانتماء إلى الجزائر)... (18).

إن سعد الله كان محققاً عندما دافع عن وجود أمة جزائرية تنتمي إلى أرض جزائرية ذلك لأنه أدرك أن المؤرخين الفرنسيين قللوا من شأن رموز المقاومة من أمثال الأمير عبد القادر، الحاج أحمد باي، المقراني، و الحداد و بوبغلة و حمدان خوجة "لتجريد" الجزائريين من أبطالهم، وإعطاء الانطباع بأنه ليس هناك أبطال يدافعون عن أرضهم وبالتالي لا وجود للأمة الجزائرية ولا للوطن الجزائري.

وخلاصة القول أن سعد الله رحمه الله قام خلال مسيرته العلمية على زرع القيم الوطنية، و الثقافية في أذهان الطلبة و الدارسين، كما حذر من كتابات مؤرخي الاستعمار كيف لا وهو الذي فضل الاستقرار في بلده للجمع بين التدريس والتأليف بدلا من الاستقرار في الولايات المتحدة الأمريكية، و أوصى بدفنه مع أجداده في بلدة قمار بوادي سوف.

المصادر والمراجع

- 1- أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ج3، ص 101 – 160.
- 2- أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، ص 66، 67.
- 3- ولد مصطفى بن محمد بن عبد الرحمن الكبابي في مدينة الجزائر سنة 1775 وهو شاعر، فقيه، عالم بالفقه المالكي. ولي الإفتاء بمدينة الجزائر في بداية عهد الاحتلال الفرنسي. نفاه الفرنسيون، في سنة 1843 خارج البلاد. فاتجه نحو مصر، وسكن الاسكندرية و توفي بها سنة 1860.
- 4- أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2 ص11.
- 5- أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2 ص130.
- 6- نفس المرجع، ج1، ص 73
- 7- أبو القاسم سعد الله: أفكار جامعة (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب 1988) ص، 251.
- 8- توافين أحمد، أستاذ متقاعد، ومجاهد، مقابلة شخصية بتاريخ 14 نوفمبر 2014.
- 9- والمخطوط موضوع في قسم التصوف، فيه أخبار سياسية واجتماعية وجغرافية وعلمية عن الجزائر، أنظر، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ج1، ص ص، 159 – 175.
- 10- أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، ص ص، 11 – 35.

- 11- هناك النسخة المخطوطة و النسخة المطبوعة وقد طبعت الأولى في كتاب، مرة في سنة 1903 بالإسكندرية، ومرة ثانية في بيروت سنة 1964. تقع النسخة المخطوطة في قسمين، كل قسم في مجلد، وهي مكتوبة بخط نسخي جيد، و حروف بارزة و فنية في إطار جميل و مذهب. ولا يوجد في النسخة المطبوعة تاريخ انتهاء المؤلف من تأليف الكتاب ولكن هذا التاريخ في النسخة المخطوطة هو سنة 1890. أنظر، أبحاث و آراء... ج2، ص 130.
- 12- أبحاث و آراء...، ج2، ص269.
- 13- أبحاث و آراء...، ج3، ص49-85.
- 14- نفس المرجع، ج5، ص، 201-216.
- 15- نفس المرجع ج2، ص 49-61.
- 16- نفس المرجع، ج2، ص 115-143.
- 17- نفس المرجع، ص175، ص، 299.
- 18- نفس المرجع، ج1، ص64، 69.